مفردات: «الحنّاء والغبار والوشم والطلل والجدب والقفر والعوسج والخلاخيل والهوادج»، وغيرها من مسميات العالم الصحراوي، كما تشير إليه الرموزُ التاريخية المحليّةُ التي حاولت الشاعرةُ مساءَلَتَها في ضوء الواقع المتغير وتحولاته الكثيرة.

لا تحاول أشجان الهندي أن تستعيد أساطيرها ورموزها من خارج البقعة التي تنتسب إليها، بل تستنطق تاريخها المحلي بما هو القاع الجامع الذي تأسست فوقه الروحُ العربيةُ في مراحل طفولتها. وأشجان التي لم تخصّ طفولتها الشخصية بأية قصيدة، سوى واحدة عن فترة الدراسة، تحاول أن تعوّض عن ذلك باستحضار الطفولة الجمعية للأمة وأن تستنبش من بين الخرائب ما تبقّى من نثار تلك الطفولة وأشيائها. فهي تبحث في «أناشيد لخيمة عبلة» عن بقايا النبض المجتمع في خلال الرمال، وعما تبقى من «صوت عبلة المختزن في هشيم الحطب»، في محاولةٍ لاستنهاض تلك الملامح التي كاد يغيِّبها النسيانُ. واللافتُ في هذه القصيدة هو جدةُ بعض الأفكار والتعابير التي تفارق المألوف لتنظر إلى الأشياء من وجهة جديدة. فأشجان ترى بأنّ الماضي لا يقفر الا حين يقفر الحاضر، وأن الأشياء لا تفرغ من معناها بل التي تفرغ هي العينُ الرائية وزاويةُ النظر: «أيا دار عبلة/مقفرة بعدك العين/وأنت إذا علق الليل زينته في شحوب الغيوم/تحوم... تحوم». هكذا يتحول الماضي إلى هامة عطشى فوق رأس الحاضر، تَطْلب ماءً لا يجيء إلا من الحاضر نفسه.

على أن قصائد **حروب الأهلّة لا** تستوي في عمقها ونسيجها وجدّتها التعبيرية، بل ثمة تفاوتٌ واضح بين القصائد رغم أنّ الشاعرة لا تغادر أسلوبها الخاص ولا تغرق في الإسفاف. وقد يكون هذا التفاوتُ ناجماً، كما عند معظم الشعراء، عن تباين الدَّفق الشعوري الذي يقف خلف القصائد وعن طبيعة لحظة الكتابة واتصالها بكاتبتها. ففي المستوى الأول تقف قصيدةُ «حروب الأهلة» المحكمةُ السبك والمستندةُ كما يبدو الى تجربة حياتية عميقة. فهذه القصيدة تنبني على شعور غامر بالآخر وسط ثنائية ظاهرة بين ذاك الذي «محاق هواه وبدد هواي» كما تعبر الشاعرة. هذه الثنائية تنقلب على وجوه مختلفة فتتحول حيناً إلى ضمير المخاطب، وحيناً إلى الغائب، وحيناً إلى ضمير الجماعة المتكلم، وحيناً إلى حسرة دامعة، وحيناً آخر إلى صرخة احتجاج. كأنّ قوة العاطفة المشتعلة تحت اللغة تحوّل القصيدة الى غابة من الإيقاعات والنداءات والصيغ التعبيرية والتقطيع الصوتي الذي يعتمد القوافي الداخلية والأنين الذي يمزق نفسه باستمرار: «سأتيك من كل ما صاغني الله منه/ومن كل ما لم أُبنْهُ/وما لم أقُلْهُ/وما لم أنَلْهُ/سأتيكَ من سَدَمي/عَدَمي/أَلمي/نَدَمي/ساعدي/قدمي/وأختار من نزقي ما أشاء/وأغويك حتى يئنّ المساء/وينتفض الماء/وانشدك الغيَّ كي تطربا/وترقص حولك آثامهم/فأغتالهم كوكباً كوكباً». في هذا الكرنفال المقطَّع من الإيقاعات والألفاظ والقوافي الداخلية والصور المميزة تحاول اللغةُ بجهد أن تمازج بين الشغف الشهواني وبين الفاجعة المضمرة، أو بين نشوة الحب المتدفقة ونثار الخيبة التي ترفض الاستسلام.

وفي المستوى نفسه تقع قصيدةُ «خشب» التي تهديها الشاعرة إلى أبيها الغائب، حارفةً اللغةَ عن دلالاتها الأولى ومقيمةً عالماً من الأخيلة والرموز، خالطةً بين الحواسّ والرؤى والألوان والذكريات بشكل يجعل القصيدة رغم قدمها النسبي (١٩٨٨) أفضلَ قصائد المجموعة وأكثرها خفوتاً وتوازناً بين الألفاظ ودلالاتها. فليس في القصيدة حشوٌ ولا زياداتٌ فضفاضة أو ترهُّلٌ تعبيري، بل اسئلةٌ حارةٌ وعميقة عن العلاقة بين الأب النجّار وبين عالم يتآكله التسوسُ ويصير إلى زوالٍ. وهكذا تشعّ القصيدةُ بالعديد من الالتماعات الحارة والمؤثرة، مثل: «يا أبتي/أشمُّ السوسَ في الأخشاب»؛ أو «أبي النجار/يحمي صدره المسلول بالأخشاب»؛ أو «حين تُطلُّ كالمسمارِ من بين الشقوقِ السودِ أسئلتي...»، وغيرها من الصور المميزة. لكنّ الشاعرة لا تحافظ دائماً على هذا النسق الدلالي الموازن بين عناصره بل يتحول استخدام التراث أحياناً إلى نزوع فولكلوري مقحَم وغيرِ قادرٍ على تبرير جدواه، أو إلى تضمينات عامية لا تستطيع القصيدة تحملها فتتحول عبئاً على الكتابة. وهو ما نجده بشكل واضح في قصيدتي «دانة» و «الفصل» اللتين لا ترقيان إلى مستوى القصائد الأخرى في المجموعة.

لا بد من الإشارة أخيراً الى أنّ هذه الهنات البسيطة لا تقلل من أهمية هذه التجربة الشعرية المميزة ومشروعيتها. وفي اعتقادي أنّ أشجان الهندي ما تزال تحتفظ في داخلها بالكثير الذي تَعِدُ به. وذلك ما تشي به قدرتُها الفائقةُ على توليدِ الصور وشدِّ أواصر القصيدة بإحكام وتوظيفِ البحور الشعرية في تلوين إيقاعي يجعله يبدو وكأنّه نوعٌ من الموشحات الجديدة. وأنا متيقن من أنّ المطر الذي تتكرر انتظاراته في قصائد أشجان سيأتي، كما أتى، من الداخل هذه المرة ومن قصائدها بالذات.

بيروت

الخزّاف... حافظ محفوظ

«موعود لأقدارنا هذا الهبوب القادم من ضفاف أخرى...» سان جون بيرس [أناباز]

كنْ فكرةً في الرّيح وأَطْلقني وراءك
كيْ أرَى...
هيأتُ آنيةً من الفخّار للدّعوات
والحلمَ الأخيرَ لترتع الغزلان في بيتي وترتاح الطيّورُ
وها أنا أنضو نهاراتي البليلة عن مجاري اللّيل
ها أنا أحلب الأضواء من ثدي الأقاصي صامتاً
أبصرتُ أجساداً من القطن النديّ تجرُّ غابات
وكانت لي ظلالٌ في الجدار محوتُها ورسمتُ راياتي.
وحيداً أنزع الأقفال عن لغتي، أعيدُ لها القداسات التي ارتقبت
مزاري والبهاء البكر والماء المسجّى في الأغاني، لحنها البدويَّ
والصّبوات.
(حين مددتَ آنيتي إليك تركتها وصببت غيمك في شفاهي
لم أقل لك شدّني، فلقد هويتُ وأفلتت منّي صباحاتي)
وحيداً
كان لي صحوُ الجداول،
أرهفتْ سمعي ودلّتني على حدسي
ودلّتني على أسرارها لغتي
وقادتني إلى صوتي عذاباتي.

* * *

أنا الضوءُ المصوَّبْ نحو وادي النمل أحرسه
من الجند النيام على الجياد
وأحرسُ الخوف الذي أضحى كلاماً في الوهاد
وأحرسُ الموتَى من الموتِ
وأطلقـــهـــا فـــراشـــاتي
دمي غليانُ أغنية على شفة
وكفّي نيزك ضالٌ يدقُّ على الكواكب نورةُ
ويدوسُ مشكاتي
ولا أسماءَ لي
لا ماء في الوادي
وذا طيني هممتُ به فما لانت جوانبه
وذي ألوان ابريقي امّحَتْ.
لا ماءَ في الوادي
وذمي كفّي تكوّم حفنة الأضواء تدعكها
فتفلت من شقوقِ أصابعي وتطيرُ،
(هيّا رفرفي يا حفنة الأضواءِ في سحبي،
وردّي الماء للوادي...)
أبارك هذه الكلمات والماء الذي ما زار أحلامي
وصلصال الدّوارق؛
عريه المنذور لامرأة تعيّرني تماثيلي بها
(من قال إنّي لم أكن أنثى ولم أفقد شفاهي عند خزّافي
وبي برهان شهوته؛ أصابعه التي أخفت حرائقها على جسدي
وذا موّاله ما زال يرتع فوق أطرافي
وها خدّي نمتْ به جنّةٌ من لمسه
من قال إنّي لم أكنْ في كاسهِ)
هيّأتُ سماواتي
زينتُ النّجماتِ، رددتُ لها ثوب الأعراس
جمعت لها أعشاباً من حقل الياقوت
وطوّقت الشّمس المشدودة في أعناق الطير
بنيتُ ممالك من أبجديات خضر
تستنبتُ أبجديات خضر
تستنبتُ أبجديات خضر
تستنبت أكواناً..
وأضأتُ ثنياتي
(ربّما أيقظتني أناملك السّاهرات على حفنة الضوء
كي أتعلّم نحت الصبّاح لها!)
ربّما استنبتتني الرّؤى
فنبتّ من الحلم صفصافة،
فليحطّ على ساعدي الغيمُ، وليسهر النّجم فوق ذراعي

* * *

أنا خزّاف هذا الضوء
أرفعه، أشكّله، أديرُ قوامه،
أحنو عليه، أقول يشبهني،
ألوّنه،
ولكنّي إذا نزل الظّلام أراه يتركني
وتسقط في يدي الألوانُ.
(ها أنذا أفتّش عن معادن لا تفارقني إذا سوّيتها
وتظل تستر عريها الألوان)

تونس

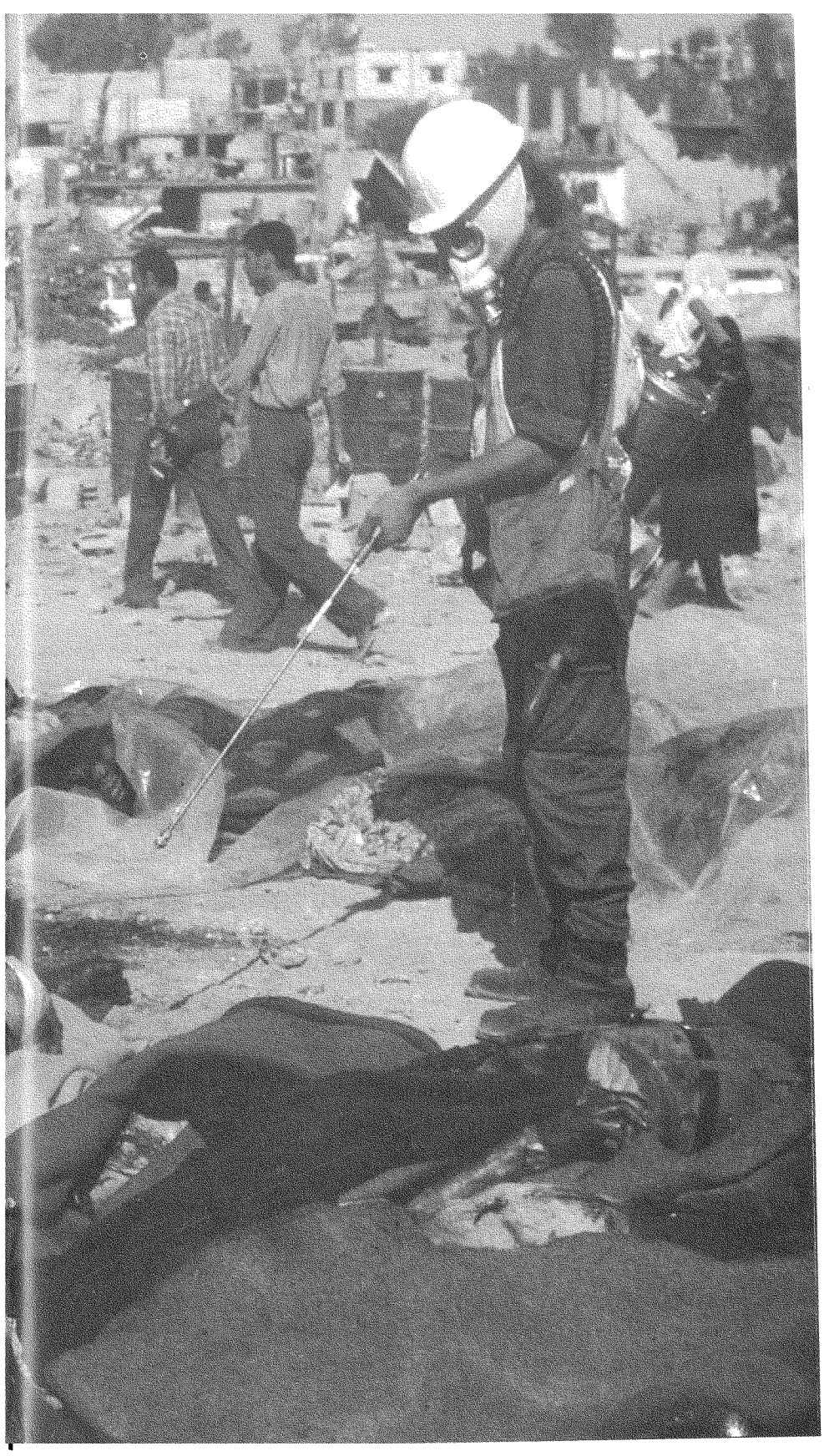

فصل من رواية

باب الشمس

لـ «الياس خوري»

عن دار الآداب في بيروت تصدر مطلعَ الشهر القادم رائعةُ إلياس خوري الروائية الملحميّة الجديدة: باب الشمس.
وفيما يلي نورد فصلاً من فصولها.

ذهبتُ بدافع الفضول، فأنا لا أعرف المنطقة الشرقيَّة في بيروت، ولم يسبق أن التقيتُ أحد هؤلاء الذين حاربناهم وحاربونا. الحرب الأهلية صارت مثل منام طويل، كأنَّها لم تحدث. أشعر بنكهتها تحت جلدي ولكنِّي لا أصدقها. لم يبق منها سوى الصور. حتى مذبحتنا هنا في المخيم، والذباب الذي افترسني، أرى ذلك أمامي كأنَّه صورة. كأنَّني لا أتذكَّر بل أشاهد. لا أنفعل بل أصاب بالدهش. غريب، أليس كذلك؟، غريب أن تمرّ الحربُ كالمنام.

وأنتَ، ما رأيك؟

لو حكيتَ، لقلت إنّ العمر كله يبدو كمنام. ربما كنتَ الآن، في نومك الطويل، تطفو فوق الأشياء، كما تطفو العيون فوق الصور.